الحكمة والموعظة الحسنة
في عمل المرشدة الدينية

أ/ ربيحة إلغات
كلية العلوم الإسلامية
جامعة الجزائر

مقدمة :

إن الدعوة إلى عبادة الله وتوحيده، تعتبر من أجلِّ الأعمال التي ينبغي أن يتصدّر لها كل مسلم جامع لشروطها، لا فرق في ذلك بين الذكر والأنثى، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ **وَمَنَ اَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّن دَعَآ إِلَى اَللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ اَلْمُسْلِمِينَ**﴾ [1].

قال الدكتور وهبة الزحيلي في تفسير هذه الآية: « الدعوة إلى توحيد اللّه وطاعته وعبادته، هي خيرُ ما يقوله إنسانٌ لإنسان، وهذا نص عام يشمل كل داعية مخلص إلى اللّه، سواء الداعية الأول وهو رسول اللّه أوالمؤذنون، أوالقائمون بالدعوة إلى الإسلام في كل زمان ومكان بالقول أو الخطابة أو الكتابة»[2].

فالقائم بأمر الدعوة إلى الله تعالى هو من أفضل خلق الله إلى الله، لا سيما وأنه متبع لطريق الداعية الأول وممتثلٌ قوله: « بلغوا عني ولو آية»[3]، وقد أخبر بعظم ثواب الداعية إلى الله تعالى كما في صحيح مسلم حيث قال: « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا »[4].

1 - سورة فصلت ، الآية :33.
2 - د. وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر، دمشق، سوريا، ط2 سنة 1418هـ،(24/ 228).
3 - رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، (3/ 1275).
4 - رواه مسلم، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة(8/ 62).

ولما كان عمل المرشدة الدينية عمل دعوي رباني، كان لزاما علينا أن نوضح الأسس والقواعد التي ينبغي مراعاتها في إيصال الدعوة إلى المدعوين وذلك من أقصر الطرق وأنجعها، وهذا الأمر لا يتأتى لنا إلا بالرجوع إلى كتب العلماء العاملين المخلصين، لننهل من نبعهم الصافي ونستنير بآرائهم الصائبة في تحديد الأطر العامة لهذه المهمة النبيلة.

المبحث الأول : الإرشاد إلى طريق السداد

يعتبر الإرشاد من أفضل الأعمال إلى الله تعالى، لأنه يحقق النفع للناس في الدنيا والآخرة، لذلك جعل الله تعالى هذه الأمة خير من قام بمهمة الإرشاد والنصح فقال: ﴿ **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ اخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَامُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُومِنُونَ بِاللهِ**﴾ [1]. قال الإمام ابن كثير: يخبر تعالى عن هذه الأمة المحمدية بأنهم خير الأمم... وأنفع الناس للناس، وقال ابن عباس: أن الآية نزلت في الذين هاجروا مع رسول الله من مكة إلى المدينة... والصحيح أن هذه الآية عامةٌ في جميع الأمة، كل قَرْن بحسبه، وخير قرونهم الذين بُعثَ فيهم رسول الله – ص -، ثم الذين يَلونهم، ثم الذين يلونهم[2].

ومما لاشك أن إسم المرشدة، مشتق من الفعل أرشد- يرشد- إرشادا.

فما معنى الإرشاد في اللغة والاصطلاح.

المطلب الأول : الإرشاد لغة

جاء في لسان العرب: مادة (رشد): الرشيدُ: وهو من أَسماء الله تعالى، هو الذي أَرْشَد الخلق إِلى مصالحهم، أَي هداهم ودلهم عليها.

وقيل: هو الذي تنساق تدبيراته إِلى غاياتها على سبيل السداد من غير إِشارة مشير ولا تَسْديد مُسَدِّد.

ورَشِد بالكسر يَرْشَد رَشَداً ورَشاداً، إِذا أَصاب وجه الأَمر والطريق، وفي الحديث «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي» يريد بالراشدين أَبا بكر وعمر وعثمان وعليًّا رحمة الله عليهم ورضوانه، وإِن كان عامًّا في كل من سار سِيرَتَهم من الأَئمة.

وأَرشَدَه إِلى الأَمر ورشَّده: هداه، واستَرْشَده: طلب منه الرشد، ويقال استَرْشَد فلان لأَمره: إِذا اهتدى له، وأَرشَدْتُه فلم يَسْتَرْشِد، وفي الحديث: «وإِرشاد الضال» أَي هدايته الطريقَ[3]، وهذا يعدُّ من نفع الخلق والإحسان إليهم.

1 - سورة آل عمران، الآية :110

2 - الإمام ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن باديس، الجزائر، ط2، سنة1998م، (2/ 92).

3 - ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان ط1، مادة: (رشد)، (3/ 175).

المطلب الثاني : معنى الإرشاد في الاصطلاح

عُرّف الإرشاد في الموسوعة الفقهية بأنه:« الدلالة على الخير والمصلحة، سواء أكانت دنيوية أم أخروية»[1].

وواضح مما سبق أن التعريف الاصطلاحي يتناسب مع التعريف اللغوي، إذ أن الارشاد في اللغة هو توضيح الطريق للسالكين وهدايتهم ونفعهم والإحسان إليهم، وهي معاني لصيقة بالمعنى الاصطلاحي للإرشاد.

والتعريف المختار لعمل المرشدة الدينية هو: دلالة المسترشدين إلى كل ما يجلب لهم المصالح ويدفع عنهم المفاسد والمضار، سواء أكان ذلك في أمور المعاد أم المعاش.

كما أنه ينبغي التنبه على أن الإرشاد لا يلزم منه حصول الإصلاح بالضرورة، رغم أنه الثمرة المرجاة والنتيجة المتوخاة من عملية الإرشاد، ذلك أن المرشد دالٌ على الخير والمصلحة فحسب، وليس باستطاعته حمل الناس على الإستقامة والصلاح، وهي مهمة صعبة، إن لم نقل مستحيلة، لذلك أعفى الله منها نبيه في قوله ﴿ **فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنْتَ مُذَكِّرٌ* لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ** ﴾ [2] قال الإمام ابن كثير: أي فذكر يامحمد الناس بما أرسلت به إليهم(فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) ولهذا قال:﴿ **لَّسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ**﴾[3] قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: (لست عليهم بجبار) أي لست الذي تخلق الإيمان في قلوبهم، وقال ابن زيد: لست بالذي تكرههم على الإيمان[4].

وجاء في الموسوعة الفقهية: ويطلق لفظ الإرشاد على التبيين، ولا يلزم أن يلازم التبين الإصلاح، في حين أن الإصلاح يتضمن حصول الصلاح[5]، وإلا فلا يسمى إصلاحا.

لهذا فإن عمل المرشد يقتصر على البذر والإعتناء، وعلى الله الإنبات والإستواء.

المبحث الثاني: المنطلقات الأساسية لعمل المرشدة الدينية.

إن العمل الناجح هو ذاك الذي ترسم فيه الغايات والأهداف بوضوح، فلا ينشغل العامل فيه بمحقرات الأمور وسفاسها عما هو غاية وهدف، ولا يقدم الفرع على الأصل، إلا إذا كان خادما له، هذا من جهة.

1 - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويتية، الموسوعة الفقهية الكويتية، دار السلاسل، الكويت، ط2، (5/ 62).
2 - سورة الغاشية ، الآية :21-22.
3 - سورة الغاشية ، الآية :22
4 - الإمام ابن كثير، مرجع سابق (4/ 650).
5 - الموسوعة الفقهية الكويتية، مرجع سابق، (5/ 62).

ومن جهة أخرى لابد للعمل الناجح أن يرتكز على أسس وقواعد متينة تعينه على القيام، وتضمن له الاستمرار والدوام، وهذه الأسس لا يسع العامل جهلها، لأن الجهل بها جهل بأصل العملية الدعوية كلها.

ونحن نذكر هذه الأسس والمنطلقات، كان لزاما علينا أن نحصر الحديث في منطلقين هامين هما: الحكمة والموعظة الحسنة في عمل المرشدة، وهو موضوع بحثنا المتواضع.

وجدير بالذكر أن نذكّر بالسند الشرعي لهذين المنطلقين، وهو قول الله تعالى: ﴿**اَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالتِى هِىَ أَحْسَنُ...** ﴾[1]، قال ابن القيم في تفسير هذه الآية: أطلق الله سبحانه الحكمة ولم يقيدها بوصف الحسنة؛ إذ كلها حسنة، ووصف الحسن لها ذاتي، وأما الموعظة فقيدها بوصف الإحسان، إذ ليس كل موعظة حسنة، وكذلك الجدال قد يكون بالتي هي أحسن وقد يكون بغير ذلك وهذا يحتمل أن يرجع إلى حال المجادل وغلظته ولينه وحدته ورفقه فيكون مأمورا بمجادلتهم بالحال التي هي أحسن[2].

المطلب الأول: منطلق الحكمة

تعريف الحكمة:

لغـة:

جاء في لسان العرب في مادة (حكم): الحَكْمَةُ عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم ويقال لمَنْ يُحْسِنُ دقائق الصِّناعات ويُتقنها حَكِيمٌ.

والحِكْمَةُ من العلم، والحَكِيمُ العالِم، وصاحب الحِكْمَة : قد حَكُمَ أي صار حَكِيماً، قال النَّمِرُ بن تَوْلَب: « وأَبْغِض بَغِيضَكَ بُغْضاً رُوَيْداً // إذا أنتَ حاوَلْتَ أن تَحْكُما». أي: إذا حاوَلتَ أن تكون حَكيماً والحُكْمُ: العِلْمُ والفقه؛ قال الله تعالى:﴿ **وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا**﴾[3] أي علما وفقهاً هذا لِيَحْيَى بن زَكَرِيَّا، وكذلك قوله «الصَّمْتُ حُكْمٌ وقليلٌ فاعِلُهْ» وفي الحديث: « إنَّ من الشعر لحُكْماً» أي: إن في الشعر كلاماً نافعاً يمنع من الجهل والسَّفَهِ ويَنهى عنهما، قيل: أراد بها المواعظ والأمثال التي ينتفع الناس بها.

1 - سورة النحل ، الآية :125.
2 - ابن القيم، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد حامد الفقهي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1973م، (1/ 445).
3 - سورة مريم، الآية 12

والعرب تقول: حَكَمْتُ وأَحْكَمْتُ وحَكَّمْتُ بمعنى: مَنَعْتُ ورددت، ومن هذا قيل للحاكم بين الناس حاكِمٌ لأنه يَمْنَعُ الظالم من الظلم، وروى المنذري عن أَبي طالب أنه قال في قولهم حَكَمَ الله بيننا، قال الأصمعي: أصل الحكومة، رد الرجل عن الظلم، قال: ومنه سميت حَكَمَةُ اللجام لأَنها تَرُدُّ الدابة ؟[1].

ومما سبق من التعريف اللغوي يظهر لنا أن معنى الحكمة: هي المعرفة والعلم والفقه المانع من السفه والطيش والظلم.

إصطلاحا:

أحسن ما قيل في الحكمة: قول مجاهد ومالك: إنها معرفة الحق والعمل به والإصابة في القول والعمل، وهذا لا يكون إلا بفهم القرآن والفقه في شرائع الإسلام وحقائق الإيمان»[2].

وقال الزحيلي: أن الحكمة هي المقالة المحْكمة والدليل الموضح للحق المزيح للشبهة[3].

عرّفها ابن القيم بقوله:« الحكمة هي فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي». ثم قال: والله تعالى أورث الحكمة آدم وبنيه، فالرجل الكامل: من له إرث كامل من أبيه، ونصف الرجل كالمرأة له نصف ميراث، والتفاوت في ذلك لا يحصيه إلا الله تعالى، وأكمل الخلق في هذا: الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وأكملهم أولوا العزم، وأكملهم محمد، ولهذا امتن الله سبحانه وتعالى عليه وعلى أمته بما آتاهم من الحكمة كما قال تعالى:﴿ **وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً** ﴾ [4]. فكل نظام في الوجود مرتبط بهذه الصفة، وكل خلل في الوجود وفي العبد فسببه: الإخلال بها، فأكمل الناس: أوفرهم منها نصيبا، وأنقصهم وأبعدهم عن الكمال: أقلهم منها ميراثا[5].

وقال الإمام القرطبي في جامعه: « وأصل الحكمة ما يُمتنَع به من السفه، فقيل للعلم حكمة، لأنه يُمتنَع به، وبه يُعلَم الامتناع من السفه، وهو كل فعل قبيح، وكذا القرآن والعقل والفهم. وفي البخاري : «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين» وقال هنا: ﴿**وَمَنْ يُّوتَ الْحِكْمَةَ فَقَدُ اوتِىَ خَيْراً كَثِيراً**﴾[6] وكرر ذكر الحكمة ولم يضمرها، اعتناء بها، وتنبيها على شرفها وفضلها[7].

1 - لسان العرب (12/ 140).
2 - ابن القيم، مرجع سابق، (2/ 478).
3 - التفسير المنير (14/ 267).
4 - سورة النساء ، الآية : 113.
5 - ابن القيم، مدارج السالكين (2/ 479).
6 - سورة البقرة، الآية 269
7 - الإمام القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار عالم الكتب، الرياض، سنة 2003م، (3/ 330).

التعريف المختار:

ومما سبق من التعاريف، يمكننا تعريف الحكمة إنطلاقا من مصدرها، الذي يعني: الإحكام: وهو الإتقان في القول والعمل، والذي قال فيه النبي:« إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه»[1].

فالحكمة: هي الإتقان في القول والعمل، حيث يوضع الشيء في موضعه بأن يثمر الإمتناعَ من السفه والطيش والظلم.

ورودها في القرآن الكريم:

لقد ذكر الله تعالى كلمة الحكمة في ثمانية عشر[2] موضعاً من كتابه العزيز، والناظر في هذه الآيات يتضح له أن لفظ «الحكمة» يأتي مرة مفردا كما في قوله تعالى: ﴿ **يُوتِى اِلْحِكْمَةَ مَنْ يَّشَآءُ وَمَنْ يُوتَ اَلْحِكْمَةَ فَقَدُ اوتِىَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الاَلْبَابِ**﴾ [3]، ويأتي مرة أخرى مقرونا مع لفظ الكتاب كما في قوله تعالى: ﴿ **رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ اَلْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [4]، ولقد بيّن الإمام ابن القيم رحمه الله، أن معنى الحكمة في الانفراد يختلف عن معناها في الاقتران، حيث قال:« الحكمة في كتاب الله نوعان : مفردة ومقترنة بالكتاب فالمفردة: فسرت بالنبوة، وفسرت بعلم القرآن؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي علم القرآن: ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله

وقال الضحاك: هي القرآن والفهم فيه وقال مجاهد: هي القرآن والعلم والفقه وفي رواية أخرى عنه: هي الإصابة في القول والفعل، وقال النخعي: هي معاني الأشياء وفهمها وقال الحسن: الورع في دين الله كأنه فسرها بثمرتها ومقتضاها.

وأما الحكمة المقرونة بالكتاب: فهي السنة كما قال الشافعي وغيره من الأئمة وقيل: هي القضاء بالوحي وتفسيرها بالسنة أعم وأشهر[5].

---

1 - أخرجه البيهقي فى شعب الإيمان عن عائشة (4/ 334 ، رقم 5312).
2 - انظر هذه المواضع في المصحف الكريم في السور والآيات التالية: البقرة: 129 - 151- 231- 251- 269 (تكررت مرتين)، آل عمران: 48 - 164، النساء: 54 - 113، المائدة: 110، النحل: 125، الإسراء: 39، لقمان: 12، الأحزاب: 34، ص: 20، الزخرف: 63، الجمعة: 02.
3 - سورة البقرة ، الآية :269.
4 - سورة البقرة ، الآية :129.
5 - ابن القيم، مرجع سابق، (2/ 478).

مراتب الحكمة وأنواعها:

يمكننا تقسيم الحكمة إلى مرتبتين هامتين هما: الحكمة العلمية والحكمة العملية.

1 - **الحكمة العلمية:** هي الاطلاع على بواطن الأشياء ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها خلقا وأمرا قدرا وشرعا، وهذا لا شك أنه الجانب النظري للحكمة.

ذلك أن الأشياء لها حقوق تقتضيها عقلا وشرعا، ولها حدود ونهايات تصل إليها ولا تتعداها، ولها أوقات لا تتقدم عنها ولا تتأخر، فكانت الحكمة مراعاة هذه الجهات الثلاثة بأن تعطي كل مرتبة حقها الذي أحقه الله لها بشرعه وقدره، ولا تتعدى بها حدها، فتكون متعديا مخالفا للحكمة، ولا تطلب تعجيلها عن وقتها فتخالف الحكمة، ولا تؤخرها عنه فتفوتها، وهذا حكم عام لجميع الأسباب مع مسبباتها شرعا وقدرا فإضاعتها تعطيل للحكمة؛ بمنزلة إضاعة البذر وسقي الأرض وتعدي الحق: كسقيها فوق حاجتها بحيث يغرق البذر والزرع ويفسد، وتعجيلها عن وقتها: كحصاده قبل إدراكه وكماله[1].

2 - **الحكمة العملية:** وهي وضع الشيء في موضعه، وهذا الجانب التطبيقي للحكمة.

وبإلمام الداعية المرشدة لهذين النوعين من الحكمة، تكون قد حازت شرف العلم النظري- وهو الحكمة العلمية- وشرف العلم التطبيقي- وهو الحكمة العملية-، ولا يمكن بحال من الأحوال الفصل بين الحكمتين، أو الإكتفاء بإحداهما دون الأخرى، ذلك أن العلم النظري لا يطلب لذاته بل يطلب للعمل به، وكذلك العمل لا يمكن أن يكون صوابا إلا إذا استند على علم نظري صحيح، وهو البصيرة التي ذكرها الله تعالى في سورة يوسف عليه السلام في قوله: ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُواْ إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اِتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَآ أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [2].

والمتتبع لآيات القرآن الكريم يجد أن الله تعالى جمع لأنبيائه ورسله بين هاتين الحكمتين، فصاروا بذلك كُمّلاً في أخلاقهم وفي دعوتهم إلى الحق، قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام ﴿ **رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا**﴾ وهو الحكمة النظرية، ﴿ **وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** ﴾[3] وهي الحكمة العملية، وقال تعالى لموسى عليه السلام:﴿ **إِنَّنِي أَنَا اللّهُ لآ إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ**﴾، وهي الحكمة النظرية ﴿ **فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي** ﴾[4] وهي الحكمة العملية، وقال

1 - ابن القيم، مرجع سابق، (2/ 479).
2 - سورة يوسف ، الآية :108.
3 - سورة الشعراء ، الآية :83.
4 - سورة طه ، الآية :14.

عن عيسى عليه السلام: ﴿ **إِنِّى عَبْدُ اللهِ ءَاتَانِىَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيئًا**﴾[1] وهي الحكمة النظرية، ﴿ **وَأَوْصَانِىَ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا** ﴾[2] وهي الحكمة العملية، وقال في شأن محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ **فَاعْلَمَ أَنَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا اللهُ** ﴾، وهي الحكمة النظرية،﴿ **وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ**﴾[3]، وهي الحكمة العملية.

لذلك كان من الواجب على المرشدة الدينية أن تجمع بين العلم والعمل، كي تكون قدوة لغيرها، يقتدى بها في أقوالها وأفعالها، لأن الداعية لا يكون حكيمًا في دعوته ما لم يعمل بعلمه، ولهذا ينفر الناس منه وتزل موعظته من القلوب كما يزل القطر من الصفا، لأن الكلام - في الغالب - إذا خرج من القلب وقع في القلب، وإذا خرج من اللسان لم يتجاوز الآذان، كما قال الشاعر الحكيم:

يا أيها الرجل المعلم غيره * * * هلا لنفسك كان ذا التعليم
إبدأ بنفسك فانهها عن غيها * * * فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل ما تقول ويقتدي * * * بالعلم منك وينفع التعليم
تصف الدواء لذي السقام من الضنا * * * كيما يصح به وأنت سقيم
أراك تلقّح بالرشاد عقولنا * * * نصحًا وأنت من الرشاد عديم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله * * * عار عليك إذا فعلت عظيم[4]

أركان الحكمة:

ولها ثلاثة أركان : العلم والحلم والأناة.

1 - العلم:

قال قتادة: لو كان أحد يكتفي من العلم بشيء، لاكتفى موسى -عليه السلام- ولكنه قال:﴿**هَلْ اَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**﴾[5]. لذلك وجب على المرشدة تعلّم العلم والاستزادة منه، فإذا ظنت أنها قد تعلمت، فقد جهلت، وقد روي عن أبي حنيفة النعمان أنه كان يحمل دائما في يده محبرة، فسئل عن ذلك فقال مقولته المشهورة: «من المحبرة إلى المقبرة».

1 - سورة مريم ، الآية :30.
2 - سورة مريم ، الآية :31.
3 - سورة محمد ، الآية :19.
4 - ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، مؤسسة الريان، دار ابن حزم، 2003م، (1/ 353).
5 - سورة الكهف ، الآية :66.

وروي عن أمير المؤمنين علي أنه قال: «العلم ضالة المؤمن، فخذوه ولو من أيدي المشركين، ولا يأنف أحدكم أن يأخذ الحكمة ممن سمعها منه»، وعنه أيضًا أنه قال: «الحكمة ضالة المؤمن، يطلبها ولو في أيدي الشُرَطِ» -أي الشرطة-.

وأما عن أسباب تحصيله واكتسابه، فقد سئل بعض العلماء أو الحكماء: ما السبب الذي يُنال به العلم؟ قال: «بالحرص عليه يُتّبع، وبالحب له يُستمع، وبالفراغ له يجمع».

وينبغي للمرشدة أن تطلب العلم من أهله، فهم النبع الصافي الروّاء، وعليها أن تتجنب الخوض في غمار بحرٍ زلت فيه أقدام كثير ممن تتلمذوا على الكتب، ولها في ذلك أسوة في العلماء العاملين الذين أخذوا العلم من أهله، رغم علو كعبهم في الفقه والدين، فقد ذكر ابن عبد البر أن سعيد بن جبير كان يقول: « لقد كان ابن عباس يحدثني بالحديث لو أذن لي أن أقوم فأقبل رأسه لفعلت»[1]، وهذا حبر الأمة مع جلالته وقرابته للمصطفى يأخذ بركاب زيد بن ثابت ويقول: «هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا»، فقبل زيد يده وقال: «هكذا أمرنا أن نفعل بآل بيت نبينا»[2].

2 - الحلم:

والحِلْمُ بالكسر الأَناةُ والعقل وجمعه أَحْلام وحُلُومٌ وفي التنزيل العزيز: ﴿ **اَمْ تامُرُهُمْ أَحْلاَمُهُم بِهَذَآ**﴾ [3]. أي عقولهم. وفي حديث النبي في صلاة الجماعة: « لِيَلِيَنِّي منكم أُولوا الأَحْلام والنُّهَى» أي: ذوو الألباب والعقول.

والحَلِيمُ في صفة الله عز وجل معناه: الصَّبور، وقيل معناه: أنه الذي لا يسْتَخِفُّهُ عِصْيان العُصاة، ولا يستفِزّه الغضب عليهم، ولكنه جعل لكل شيءٍ مِقْداراً فهو مُنْتَهٍ إليه[4].

والحلم في الإصطلاح: هو ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب، وهو حالة متوسطة بين رذيلتين: الغضب، والبلادة؛ فإذا استجاب المرء لغضبه بلا تعقل ولا تبصر كان على رذيلة، وإن تبلد، وضيع حقه ورضي بالهضم والظلم، كان على رذيلة، وإن تحلى بالحلم مع القدرة، وكان حلمه مع من يستحقه كان على فضيلة.

1 - ابن عبد البر، مرجع سابق (1/ 203).
2 - المناوي، فيض القدير، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1994م، (2/ 28).
3 - سورة الطور ، الآية :32.
4 - لسان العرب (12/ 145).

ولقد عظّم رسول الله أمر الحلم والأناة وجعلهما صفتين محمودتين عند الله ورسوله، فقد روى مسلم في صحيحه أن رسول الله قال للأشج[1] : « إن فيك خصلتين يحبهما اللّه : الحلم والأناة »[2].

فكان لابد للمرشدة أن تتحلى بوصف وصف الله به نفسه العلية في قوله تعالى :

﴿وَلَقَدْ عَفَا اَللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اَللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [3]. وكلما ازدادت المرشدة علما ازدادت حلما، لأن كمال الحلم يكون مع كمال العلم ، وهذا من أعظم أركان الحكمة.

3 ـ الأناة:

الأناة في اللغة: التثبت وعدم العجلة، يقال: تَأنى في الأمر: مكث ولم يعجل، والإسم منه: أناة[4].

وتأتي الأناة بمعنى التبيّن والتثبت في الأمور، يقال: تَبين في الأمر والرأي: تثبت، وتأنى فيه ولم يعجل[5].

ومما سبق نجد أن الأناة: هي التصرف الحكيم بين العجلة والتباطؤ، وهي من صفات أصحاب العقل والرزانة، بخلاف العجلة فإنها من صفات أصحاب الطيش والرعونة.

والأناة عند المرشدة الداعية إلى اللّه تعالى، خلق يسمح لها بالتحكم في الأمور، ووضع الأشياء في مواضعها، فهي ركن من أركان الحكمة، وهذا بخلاف العجلة فإنها تعرض صاحبها لكثير من الأخطاء، والإخفاق، والتعثر، والارتباك، ثم تعرضه للتخلف من حيث يريد السبق، وكما جاء في القاعدة الفقهية:» من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه».

نماذج من حكمة الرسول صلى اله عليه وسلم :

وبعد الحديث عن الجانب النظري للحكمة، كان لا بد علينا أن نسوق في هذا المقام بعض المواقف التي استعمل فيها النبي الحكمة، لكي يكون ذلك عونا للمرشدة الدينية في عملها الدعوي.

1 - المنذر بن عائذ بن المنذر العصري ، أشج عبد القيس ، كان سيد قومه ، رجع بعد إسلامه إلى البحرين مع قومه، ثم نزل البصرة بعد ذلك ومات بها رضي الله عنه . انظر : تهذيب التهذيب لابن حجر (10 / 267).
2 - رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان ، باب الأمر بالإيمان بالله - تعالى - ورسوله (1 / 48) .
3 - سورة آل عمران ، الآية :155.
4 - الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، (1/ 28).
5 - أحمد الزيات وآخرون، المعجم الوسيط، تحقيق: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، (1/ 80).

1 - إنزال الناس منازلهم :

ويمكن التعبير عن هذا بدراسة واقع الناس وأحوالهم، فلا بد للمرشدة أن تدعو الناس على قدر عقولهم وأفهامهم وطبائعهم وأخلاقهم ومستواهم العلمي والإجتماعي، ولهذا قال علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله»[1]، والمراد كلّموهم على قدر عقولهم ودعوا ما ينكرون، أي ما يشتبه عليهم فهمه، وفيه دليل على أن المتشابه لا ينبغي أن يذكر عند العامة.

وذُكِرَ عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «أمرنا رسول الله أن نُنْزِلَ الناس منازلهم »[2]، وقال عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-: «ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»[3].

وقد بيَّن النبي ذلك للدعاة إلى الله -عز وجل-، فقال لمعاذ بن جبل حينما بعثه إلى اليمن -داعيًا ومعلمًا وقاضيًا-:« إنك ستأتي قومًا أهل كتاب... »[4]. فأعلم معاذ بواقع الحال الذي سيقدم عليه في اليمن، وأن المعاملة مع أهل الكتاب لها أسلوبها الدعوي الخاص الذي يختلف عن أساليب الدعوة مع المسلمين.

2 - أسلوبه مع قريش.

لقد همّ عليه الصلاة والسلام بنقض الكعبة وإعادة بنائها على قواعد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، لكنه تراجع عن ذلك مخافة الفتنة التي قد توقظ في أوساط قريش، بسب ما كانوا عليه من تعظيم للبيت الحرام، فقد جاء في الحديث الصحيح أنه قال لعائشة -رضي الله عنها-: « يا عائشة ، لَوْلا قَوْمُكِ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِكُفْرٍ لَنَقَضْتُ الْكَعْبَةَ فَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ : بَابٌ يَدْخُلُ النَّاسُ منه ، وَبَابٌ يَخْرُجُونَ »[5].

فترك صلى الله عليه وسلم هذه المصلحة، لأمن الوقوع في المفاسد.

قال المهلب: فيه أنه قد يترك شيئًا من الأمر بالمعروف، إذا خشي منه أن يكون سببًا لفتنة قوم ينكرونه ويسرعون إلى خلافه واستبشاعه، وفيه: أن النفوس تحب أن تساس بما تأنس إليه فى دين الله من غير الفرائض، ... قال أبو الزناد : إنما خشي أن تنكره قلوب الناس لقرب عهدهم بالكفر، ويظنون أنما يفعل ذلك لينفرد بالفخر دونهم، وقد روي أن قريشًا حين بنت البيت فى الجاهلية تنازعت فيمن يجعل الحجر الأسود

1 - رواه البخاري ، كتاب العلم، باب من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية أن لا يفهموا (1/ 59).
2 - مسلم، في المقدمة، مع شرح النووي، (1/ 19)
3 - رواه مسلم في صحيحه، المقدمة، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع (1/ 11).
4 - البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب: أخذ الصدقة من الأغنياء وترد على الفقراء حيث كانوا(2/ 544).
5 - رواه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقعوا في أشد منه، (1/ 59)

فى موضعه، فحكّموا أول رجل يطلع عليهم، فطلع النبي فرأى أن يجعل الحجر فى ثوب، وأمر كل قبيلة تأخذ بطرف الثوب، فرضوا بذلك، ولم يروا أن ينفرد بذلك واحد منهم خشية أن ينفرد بالفخر، فلما ارتفعت الشبهة فعل ابن الزبير فيه ما فعل، فجاء الحجاج فَرَدَّهُ كما كان، فتركه من بعده خشية أن يتلاعب الناس بالبيت، ويكثر هدمه وبنيانه[1].

فدراسة البيئة والمكان الذي تبلغ فيه الدعوة أمر مهم جدًّا، فإن الداعية يحتاج في دعوته إلى معرفة أحوال المدعوين: الإعتقادية، والنفسية، والإجتماعية، والإقتصادية، ويحتاج إلى معرفة لغتهم، ولهجتهم، وعاداتهم، والإحاطة بمشكلاتهم ونزعاتهم الخلقية، وثقافتهم، ومستواهم الجدلي، والشبه التي انتشرت في مجتمعهم.

المطلب الثاني: منطلق الموعظة الحسنة

تعريف الموعظة الحسنة:

قال ابن عطية: الموعظة الحسنة هي التخويف والترجئة والتلطف بالإنسان بأن تجله وتنشطه وتجعله بصورة من يقبل الفضائل[2].

وعرّفها ابن القيم: هي الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب، والقول الحق الذي يليّن القلوب ويؤثّر في النفوس، ويكبح جماح النفوس المتمرّدة، ويزيد النفوس المهذّبة إيمانا وهداية[3]، قال تعالى:﴿**وَلَوَ اَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا** ﴾ [4]، وقال سبحانه:﴿ **يَعِظُكُمُ اَللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِ أَبَدًا اِن كُنْتُم مُّومِنِينَ**﴾ [5].

ومجمل القول:

أن الموعظة الحسنة: هي الترغيب في أعمال الخير وثواب الممتثلين، والترهيب من أعمال الشر وعقاب الراتعين في حماه، وذلك بالأقوال اللينة اللطيفة التي تحمل المدعو على الاستجابة والإمتثال.

1 - ابن بطال البكري القرطبي، شرح صحيح البخاري، دار مكتبة الرشيد، الرياض، ط2، 2003 (1/ 205).
2 - أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2001م (5/ 531).
3 - مدارج السالكين (1/ 445).
4 - سورة النساء، الآية : 66.
5 - سورة النور، الآية : 17.

أنواع المواعظ الحسنة:

1 - القول اللين: وهذا ما أمر الله تعالى به موسى وهارون عليهما السلام لما أرسلهما إلى فرعون فقال: ﴿ **اَذْهَبَآ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى** ﴾ [1].

قال الإمام الشعراوي: النصح ثقيل، فلا ترسله جبلاً، ولا تجعله جدلاً، ولا تجمع على المنصوح شدتين: أنْ تُخرِجه مما ألف بما يكره، بل تُخرِجه مما أَلِف بما يحب، وهذا منهج في الدعوة واضح وثابت، كما في قوله تعالى: { ادع إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بالحكمة والموعظة الحسنة }، لأنك تخلعه مما اعتاد وألف، وتُخرجه عَمَّا أحبَّ من حرية واستهتار في الشهوات والملذّات، ثم تُقيِّده بالمنهج، فليكُنْ ذلك برفق ولُطْف.

وهذه سياسة يستخدمها البشر الآن في مجال الدواء، فبعد أن كان الدواء مُرًّا يعافُه المرضى،توصلوا الآن إلى برشمة الدواء المر وتغليفه بطبقة حلوة المذاق حتى تتم عملية البَلْع ، ويتجاوز الدواء منطقة المذاق، وكذلك الحال في مرارة الحق والنصيحة، عليك أنْ تُغلِّفها بالقول اللين اللطيف[2].

وروي أن هارون الرشيد كان يطوف بالبيت؛ إذ عرض له رجل، فقال: يا أمير المؤمنين! إني أريد أن أكلمك بكلام فيه غلظ؛ فاحتمله لي، فقال: لا ، ولا نعمة عين ولا كرامة، قد بعث الله من هو خير منك، إلى من هو شر مني، فأمره أن يقول له قولا لينا[3].

2 - الكناية في الموعظة:

قال الإمام الطبري: يقول تعالى ذكره لموسى وهارون: فقولا لفرعون قولا ليِّنا ، ذُكر أن القول اللين الذي أمرهما الله أن يقولاه له، هو أن يكنياه[4].

والكناية كما هو معروف في علم البلاغة: لفظ أريد به لازم معناه، مع جواز إرادة معناه[5].

وقد استعمل النبي هذا النوع من الوعظ، فكان إذا أراد أن ينصح شخصا معينا، جمع الصحابة وقال: ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا،... وهو في ذلك يريد الشخص الفاعل، فقد روى السيوطي في الجامع الصغير

1 - سورة طه، الآية : (43/ 44).
2 - الإمام محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، (13/ 8282)، دار البحوث العلمية الأزهر، القاهرة. مصر.
3 - أبو بكر الدينوري، المجالسة و جواهر العلم، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، 1419هـ (3/364).
4 - الإمام الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 2000م،(18/ 313).
5 - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، ط4، 1998م ص 301.

عن عائشة رضي الله عنها أنه: «كان إذا بلغه عن الرجل الشيء، لم يقل ما بال فلان يقول كذا، ولكن يقول: ما بال أقوام يقولون كذا وكذا» وهذا استدراك أفاد أن شأنه ألا يشافه أحداً معيناً؛ حياء منه، بل يقول منكراً عليه ذلك: ما بال أقوام...؛ أي ما شأنهم، إشارة إلى ما أنكره، وكان يكني عما اضطره للكلام مما يكره؛ استقباحاً للتصريح به[1].

وهذا أبلغ وأعم نفعا لحصول الفائدة فيه لكل سامع مع ما فيه من حسن المدارة والستر على الفاعل وتأليف القلوب[2].

ومما سبق، فإنه لا بد للمرشدة الدينية أن تسلك السبيل النبوي في وعظها للمخاطبين، وأن تتستر عليهم وعلى ما يدلون به إليها من أخطاء ومخالفات، حتى يحصل النفع بالموعظة وتنضج الثمرة المرجوة من الوعظ.

شروط الانتفاع بالموعظة الحسنة.

لابد للمرشدة أن تكون على علم بالشروط الضرورية لقبول الموعظة، كي لا تضيّع وقتها الثمين في وعظ من لا يستحق أن يوعظ، بل الواجب في حقه توضيح أمورٍ أخرى كالعلم بالأحكام الشرعية وسَوْقِ أدلتها العقلية والنقلية، وبيان مناهج العلماء وطرائقهم في مختلف العلوم الدينية.

ولقد وضح الإمام ابن القيم هذه الشروط فقال : وإنما ينتفع بالعظة بعد حصول ثلاثة أشياء:

- شدة الافتقار إليها.

- العمى عن عيب الواعظ.

- تذكر الوعد والوعيد[3].

1 - إنما يشتد افتقار العبد إلى العظة، وهي الترغيب والترهيب إذا ضعفت إنابته وتذكره، وإلا فمتى قويت إنابته وتذكره، لم تشتد حاجته إلى التذكير والترغيب والترهيب، ولكن تكون الحاجة منه شديدة إلى معرفة الأمر والنهي، ... فالمنيب المتذكر؛ شديد الحاجة إلى الأمر والنهي، والمعرض الغافل شديد الحاجة إلى الترغيب والترهيب ليتذكر ما قد نسيه فينتفع بالتذكر.

1 - الإمام زين الدين المناوي، التيسير بشرح الجامع الصغير، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، ط2، 1988م، (2/ 474).
2 - الإمام زين الدين المناوي، نفس المرجع (2/ 521).
3 - مدارج السالكين (1/ 445).

2 - وأما العمى عن عيب الواعظ: فإنه إذا اشتغل به حرم الانتفاع بموعظته؛ لأن النفوس مجبولة على عدم الإنتفاع بكلام من لا يعمل بعلمه، ولا ينتفع به، وهذا بمنزلة من يصف له الطبيب دواء لمرض به مثله والطبيب معرض عنه غير ملتفت إليه، بل الطبيب أحسن حالا من هذا الواعظ المخالف لما يعظ به؛ لأنه قد يقوم عنده دواء آخر مقام هذا الدواء، وقد يرى أن به قوّة على ترك التداوي، وقد يقنع بعمل الطبيعة، وغير ذلك، بخلاف هذا الواعظ فإن ما يعظ به طريق معين للنجاة لا يقوم غيرها مقامها، ولا بد منها، ولأجل هذه النفرة قال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿ **وَمَآ أُرِيدُ أَنْ اخَالِفَكُمُ إِلَى مَآ أَنْهَاكُمْ عَنْهُ** ﴾[1] وقال بعض السلف: إذا أردت أن يقبل منك الأمر والنهي، فإذا أمرت بشيء فكن أول الفاعلين له المؤتمرين به، وإذا نهيت عن شيء فكن أول المنتهين عنه.

3 - وأما تذكر الوعد والوعيد: فإن ذلك يوجب خشيته والحذر منه، ولا تنفع الموعظة إلا لمن آمن به وخافه ورجاه؛ قال الله تعالى:﴿ **انَّ فِى ذَلِكَ لَأَيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الَاخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ** ﴾ [2]، وقال: ﴿**سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَّخْشَى**﴾ [3]، وقال: ﴿ **إِنَّمَآ أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَّخْشَاهَا**﴾ [4]، وأصرح من ذلك قوله تعالى: ﴿ **فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ**﴾ [5]، فيكون الوعد والوعيد شرط في الانتفاع بالعظات والآيات والعبر يستحيل حصوله بدونه.

1 - سورة هود ، الآية : 88
2 - سورة هود ، الآية : 103.
3 - سورة الأعلى ، الآية : 10
4 - سور النازعات ، الآية : 45
5 - سور ق ، الآية :45